ديزيره سقال

كتاب الغضب



الطبعة الثانية

٢٠٢٠

ديزيره سقال

كتاب الغضب



الطبعة الثانية

٢٠٢٠

حقول الغضب

- ١ -

عِنَبٌ، وأَحلامٌ معطَّلَةٌ،
وتاريخٌ يُفجّرُهُ الحطامُ.
عَينٌ لِصَنّينٍ على الدنيا،
وعينٌ دونَها
يُعمي مَرارَتَها الظلامُ.

خَطَواتُهُمْ ملَكَتْ على الحَقْلِ الأخيرِ زُروعَهُ،
ومَشَتْ دِمايَ إلى طريقِ النّسْغِ في الوجَعِ السَّحيقِ/ رأَيْتُ
وَجْهي في الترابِ ولمْ يكنْ ثَمَرٌ على أغصانِهِ؛
ورأَيْتُ وجهب باردًا كالصبرِ!
حقلٌ، والمدى حجرٌ أَصَمٌّ.
حقلٌ، وليسَ على اللهيبِ المضْرَمِ الملجومِ
غيرُ ثلوجِهِ
وصدًى يُلَمُّ،
الخطْوُ أَشلاءٌ رَمَيْنَ مرارَةَ الدنيا على الدنيا
وَأَرَّخْنَ الغصونَ،

فلا عِنَبْ...

والليلُ فِهْرِسْتٌ يَضمُّ شَتيتَنا

وشَتيتَ أَجيالٍ وأجيالٍ...

وذاكرةٌ تُفجِّرُها مسافاتُ الوعودِ المستحيلةِ...

لا عِنبْ...

أَلحَقلُ بورٌ يصنعُ التاريخَ مَمْجوجًا، يَباسًا.

لا لَهَبْ،

والأرضُ أَحْطابُ وفحمٌ...

لا غضَبْ،

والصبرُ صَوّانٌ على الجسَدِ المهيضِ يُمَطُّ فوقَ ترابِها
الممزوجِ بالصلصالِ والقهرِ الطويلِ وبانتهاكاتِ العصورِ،
ولا... عِنَبْ...

أحلامُنا تذوي على الصدَإِ المديدِ،
وطَعْمةُ التاريخِ تعوي من مرارتِها
ويعلكُها الركامُ...
خِرَقٌ على كرسِيِّها،
والصولجانُ بِكَفِّ مَخْصِيٍّ
يقودُ مَزارِعَ الموتى
ويَخْفُرُهُ الظلامُ!

– ٢ –

الجردُ يبكي،
والثلوجُ تكوّمَتْ في قِمّةِ الدنيا،
وصنّينُ انتظارٌ باردٌ:
ليلٌ يمرُّ على الحقولْ –
لا نَسْرَ ينشرُ في السماءِ جَناحَهُ
ويُقَبِّلُ الشمسَ التي تزهو
وتلثمُ جَبْهةَ الرعدِ البتولْ.
لا زَندَ تكسرُ عِصْمةَ الرعدِ الثقيلِ،

تردُّ قَلْبَ الأَرضِ قلبًا نابِضًا،
وتُعيدُ أَعيادَ الفصولْ.
لا زَنْدَ تقطفُ لَمْعةَ النجْمِ المزَغرِدِ في الذرى،
تَعصى على زَحْفِ المغولْ...

صَمْتٌ، وجردٌ يستفيقُ على حطامِ الصمتِ، والهذيانُ بركانٌ يفورُ/ هنا مشتْ دربي إلى دربي فَزَنَّرَها الردى. وهنا ارتمى وجهي على وجهي رمادًا باردًا، لكِنَّهُ أَلِفَ المرارةَ وَهْيَ تمتصُّ الدماءَ وتجعلُ الأعيادَ قبرًا صامِتًا...

وهنا ارتمى عرشٌ على عرشٍ

وأَرَّخَ كلُّ عرْشٍ للرمادِ بدايةً ونهايةً...
ورمى على الدنيا صفاقَتَهُ، ومَطَّ لِسانَهُ مَطًّا
ليلْعَقَ كلَّ أقدامِ الطغاةِ/
هنا ارتمى عرشٌ على عرشٍ
وأَقْفَرَتِ العروشُ من الرجالِ —
لا شيءَ غيرَ الصمتِ
في حَلْقِ الليالي...
لا شيءَ غيرَ مرارةِ الدمِ
والحقولِ الجُرْدِ
والخصبِ المحالِ...

– ٣ –

فِي الأَرْضِ هَسْهَسَةٌ

وفِي أعماقِ روي دَخْنةُ الآتي الغريبْ،

والسنبلُ الممْجوجُ مِنْ عَظْمٍ وأشلاءٍ

يُفَتِّحُ عَينَهُ للشمسِ

والصوتِ العَجيبْ –

صوتٌ... وهَسْهَسَةٌ... وبعضُ بقيّةٍ للريحِ

يَعجنُها التعَبْ.

أَلحَقلُ يرفَعُ رأسَهُ نحوَ النجومِ

وقدْ تَحَرَّكَ فِي قرارَتِهِ عَصَبْ...

حقلٌ وهَسْهَسَةٌ... كأنَّ مداخلَ الآتي تَفَتَّحُ بانتظارِ الحلْمِ. حقلٌ وانتظارٌ عارمٌ؟

أَمشي إلَيَّ وقد فَتَحْتُ مَداخِلي وشَقَقْتُ صَلصالَ الدروبِ. أَسيرُ في الوَجَعِ الذي يَهذي ويُحتَضَرُ

وأَمُرُّ كالبرقِ الذي شَقَّ الوجودَ

وشَقَّ أطباقَ الجليدِ

وهَبَّ يَنتَظِرُ،

والليلُ قُدَّ،

وقُدَّتِ الدنيا إلى شَطرينِ منْ لَهَبٍ

ومنْ عَصْفٍ،

وشُقَّ العرشُ والقدَرُ...

تَعَبٌ تَجَمَّعَ وَهْوَ يَصهَلُ في عروقِ القلبِ/ أمشي في الدروبِ العارياتِ إلى الحقولِ، أَطيرُ من قلبي إلى قلبِ الحقولِ، وأسمعُ الأعشابَ تقرأُ قصّةَ الدفءِ الذي يمضي إلى نُسْغِ الجذورِ. أَطيرُ أقرأُ في تواريخِ البذورِ محبّةَ الدنيا لأحلامِ المدى، وأصيرُ هذا الرَّبْرَبَ المجنونَ يجتاحُ الطريقَ إلى الطريقِ، أصيرُ أحلامًا يهدهدُها البريقُ، أصيرُ مختارًا يلمُّ حشاشةَ الدنيا على سُوَرٍ وآياتٍ، أَصيرُ تَفَجُّرَ الغضبِ السحيقِ يمرُّ في عُرْقِ البَوارِ ويَلْقَحُ الثمرَ الذي يَمْتَصُّهُ الشبَقُ...

وأنا الطريقُ إلى حقولِ النارِ والغضبِ السحيقِ
يَجُرُّهُ العَرَقُ...
في نَفسيَ الظَّمْأى يَرُدُّ الغَسْلَ زوبعةَ الوجودِ إلى
احمرارِ النارِ، والرؤيا إلى عمقِ المدى،
وتَشَعَّبُ الطُّرُقُ.
وأنا الذي في نفسهِ الظمأى
تقومُ خليّةُ الأحلامِ من دمِها،
وتولدُ بينَ عينيهِ الرؤى مُرْدًا،
وتفترقُ...

– ٤ –

مَشَتِ الدروبُ إلى حقولِ النارِ
والْتَهَبَ المدى،
وتفجّرَ الصّوّانُ ماءً في عروقِ التُّرْبِ،
وانتفضَ الردى/
ألرعدُ مِطْرَقَةٌ
تُوَقِّعُ غَضْبَةً مَشْبوبَةً
في عُمْقِ صَنّينٍ
ويحملها الصدى.
رعدٌ، ومطرقةٌ،
وغَيْثٌ عارِمٌ أَنّى عَدا...

مشَتِ الدروبُ إِلَيَّ فَارتَدَتِ الطريقُ زُهورَها،
وتكسَّرَ الصلصالُ عن زَمَنٍ يُزَوْبِعُ عارَنا المرْكومَ/ جُنَّتْ
كُلُّ أعراقِ الدوالي في الحقولِ، مَشَيْتُ نحوي
والطريقُ إلَيَّ يَخْفُرُها اللهَبْ.
الريحُ تمَرَحُ في ثمارِ الحقْلِ
يَعْجُنُها التعَبْ،
والنارُ تبتلعُ العروشَ
وفي رمادِ العرشِ يَلْتَهِبُ الغَضَبْ:
شَعبٌ يقومُ من الرمادِ

وَيُجْبَلُ التاريخَ منْ لَهَبٍ،

ويغتصِبُ الحَقَبْ،

وأنا المدى،

وأنا لَهيبُ الحقلِ أَرقصُ في أهازيجِ الدوالي، أَقطفُ الشمسَ التي تأوي إلى عمقِ الترابِ/ أنا الزوابعُ تَلْغُمُ العرشَ الرهيبَ وتَغْسِلُ العارَ الذي جُبِلَتْ بهِ أحلامُنا/

لا شيءَ غيرَ النارِ تمرحُ في الحقولْ.

لا شيءَ غيرَ رعودِ مِطرقَةٍ

تقدُّ جَماجِمَ الموتى

وتُحرقُ نِيمةَ التاريخِ

في خِصْبِ الفصولْ.

حَقْلٌ... ويلتهِبُ العِنَبْ...

حَقلٌ... ويلْتَهِبُ اللهَبْ...
نارٌ على نارٍ،
وأَلْسِنَةٌ تُعيدُ بِناءَ قلبِ الأرضِ
بُرْجًا من غَضَبْ!

(١٢/ ٦/ ١٩٩٤)

مدينة الأشباح

١ – مشاهد من مدينة الأشباح

١ – الشمس

تَخرجُ الشمسُ من جِلْدِها المنْحَني
في حُقولِ المسافَهْ.
تخرجُ الشمسُ من جِلْدِها
وتصيرُ خرافَهْ.
تصنعُ الشمسُ قَهْوَتَها
مِن رمالِ المدى:

تَخْلطُ الليلَ بالماءِ
والرملِ
والعَطَشِ البشريِّ...
وتأوي إلى البرْدِ والثلْجِ،
تقطفُ من جوعِنا
باقةً لحديقَتِها
لِتُرَصِّعَ أَوْعيَةً من صَدًى وعِظامْ.
ترتمي كُرَةً من جَليدٍ
فوقَ صَحرؤائنا
وتنامْ...

٢ – الأرض

بُسُطٌ من صَدًى...

طُرُقٌ مِنْ رمالٍ

تُغَيِّبُ طولَ المدى...

وجعٌ من حَديدٍ

يمطُّ اشتهاءاتِهِ

بينَ حَقْلِ الخَواءِ الطويلِ

ونَبْضِ الظلامِ على بَرْدِ قلْبي.

وجعٌ من حَديدٍ

تَمَطّى على الزمنِ المحْتَضَرْ

وعَبَّدَ كلَّ طريقٍ إِلَيْهِ
تُحاصِرُها مُدُنٌ من حَجَرْ...
غَيرَ أَنَّ الثرى يُقْفِلُ العَيْنَ،
وَالأَرْضَ لا يُلْقَحُ الحَبُّ
في عُمْقِ أَرحامِها،
والجداولُ أَرهَقَها عَطَشٌ
مِن أوارِ الرمالِ،
فلا ماءَ
بَلْ غِنْوَةٌ للحجرْ
بَينَ مَجرى المياهِ الذي نَسِيَ الماءَ

والرَّحِمِ الحجريّةِ في قُبَّةِ الليلِ.
ليسَ على الأرضِ إلّا رِمالٌ
وشلّالُ أَحْصِنَةٍ للغزاةِ
يَمُجُّ الصدى والصدى...
والظلامَ البليدْ.
لَيسَ في الأَرضِ إلّا خِواءٌ
يُرَصِّعُهُ وَجَعٌ
مِنْ حَديدْ...

٣ – البشر

كُوَمٌ من ظِلالٍ
على حفْنةٍ منْ رِمالْ
وخِواءٌ طَويلٌ
يُصَدِّعُ أَرْوِقَةَ القَفْرِ
خَلْفَ امْتِدادِ الظِّلالْ.
كُوَمٌ من ظِلالٍ
على وَجَعِ الذاكِرَهْ...
كُوَمٌ من هَباءٍ
تُحَرِّكُها الريحُ
ساخِرَةٌ... ساخِرَهْ...

كُوَمٌ تَتَحرَّكُ تَحْتَ لظى الشمسِ،

تنمو صخورًا على القَفْرِ

أو تتصاعَدُ كالآلِ نَحْوَ سماءٍ مصَفَّحَةٍ، ثُمَّ تَسقُطُ في قُمْقُمِ الليلِ، تغدو رمالًا. تُحَرِّكُها الريحُ، يَلفَحُها الليلُ بالقُرِّ/ تغدو ثَعالبَ أو بُرَكًا جافّةً ليسَ فيها صدًى أو تَمَوُّجُ ماءٍ، وقد تَتَحَوَّلُ ريحًا سَمومًا تهبُّ على شَمْسِنا الآفِلَهْ:

كُوَمٌ قافِلَهْ،

كُوَمٌ لِهبوبِ الدجى ساكِنًا كالجليدِ على قِشرةِ الأرضِ أو كَصَهيلِ الهدوءِ الثقيلِ يَعَضُّ الفَيافيَ، تَرْسَخُ في الصمْتِ باردةً كالحجرْ.

كُوَمٌ من ظِلالٍ
تقومُ وتسقطُ تحْتَ ضِياءِ القمرْ.

٢ – في مدينة الأشباح

– ١ –

الخَطْوُ بطيءٌ فوقَ بقايا الأَشْياءْ.
أَلخَطْوُ يجرُّ الخَطْوَ إِلى أشلاءٍ،
وتُحاصِرُنا الأَشْلاءْ...
صمتٌ ومدًى يتفتَّحُ عنْ ليلٍ ورمادٍ
وبقيّةُ هَسْهَسَةٍ تتحجَّرُ في قلبِ الغَيْهَبِ/ قالوا:

فوقَ جِباهِ الأَرْضِ خُطًى
ونِعالٌ تتنَسَّمُ راياتِ الرعبِ.
وقالوا:
لَهَبٌ ثَلْجِيٌّ يَنْسَلُّ على خاصرةِ الكوْنِ
ويَلْتَفُّ على رَقْبَةِ هذا الليلِ
وهذا الأُفُقِ الملْجومِ...
وقالوا:
بابٌ يتثاءبُ حينَ تمرُّ الأَشْباحُ
على حَشرجَةِ البيتِ المتداعي...
صمتٌ يتدفّقُ من شِدْقِ الليلِ

إلى...

شِدْقِ الأَرْضِ،

وخطْوٌ يتحجّرُ فوقَ الرمْلِ،

وتيهٌ... تيهْ...

وطَنٌ مَمْسوخٌ

يُدْمَغُ في جَبْهَةِ ليلٍ مَمْسوحِ الوجْهِ، كَريهْ...

شَبَحٌ يتقَيَّأُ أَشباحًا

ويَشقُّ الرملَ إلى الرملِ

ويَخرجُ مِنْ أُذُنِ الليلِ...

يهبُّ بخارٌ أَبيضُ فوقَ مَواطِئِنا

ويُزَوْبِعُنا حتّى العَظْمِ،

ويرمينا عُمُدًا من ملْحٍ

تَغرقُ في رَمْلِ الأمْداءْ...
أَلخطوُ تَكَوَّمَ عاصفةً من صَمْتٍ وهَباءْ...
أَلخطْوُ يجرُّ الخَطْوَ إلى أَشْلاءٍ
وتُحاصِرُنا الأَشلاءْ...

– ٢ –

ينتقي الوجَعُ المرُّ عَيْني
ويفتَحُها في ظلالِ المدى:
رُعُبٌ يَخْرُقُ الأَرْضَ حتّى العِظامِ

ويخرجُ من رئَتي ساخِرًا/
كُنْتُ أَرمي الحضارةَ بالرعْبِ،
أَمسَحُها بالظلالِ الكئيبَةِ
حتّى انتهاءِ التواريخِ.
كُنْتُ أُشَرِّعُ قَلْبي لحزْنِ الترابِ
ودَمْعِ السماءِ الذي يَقْرَأُ الغيْمَ
حرفًا
فحَرْفًا...
كُنْتُ أَرْمي الحضارةَ بالنارِ،
أَدْمَغُها بعيوني،

ولي في عروقِ المطرْ
يدٌ وعيونهٌ وجِسْمٌ...
ولي سَطْوَةٌ... كالقدرْ...
غَيرَ أَنّي، وقد ضاعَ وجْهي،
تَحَوَّلْتُ نَحْوي، فلَمْ أَعرِفِ الدرْبَ،
لَمْ أَجِدِ الخَطْوَ نَحْوَ الرتاجِ الكَبيرِ:
هنا وطَنٌ غائمُ الوجْهِ
يَفْقُدُ خَطْواتِهِ في الرمالْ...
هنا شَبَحٌ يَزْرَعُ الخَطْوَ في النَّظَراتِ الهزيلاتِ/
لَمْ أَجِدِ الدرْبَ نَحْوَ السؤالْ...

يَنْتَقي الوَجَعُ المرُّ عَيْني
ويزْرَعُني في المدى:
كانَ وجْهي هَباءً
يُشَقِّقُهُ فَوَرانُ الصدى.
كانَ وجْهي يَسيلُ على بَلْدَةٍ
مِنْ بَوارِ الردى...

– ٣ –

شَبَحٌ يمشي خَلْفي

بينَ جبالِ الصدَإِ المنْسوجِ
على دَرْبِ الكلماتْ.
شبَحُ يتقمَّصُ جِلْدي
وَالعَظْمَ المتناثرَ فوقَ الخُطُواتْ.
شبحٌ يَتقمَّصُ كلَّ التاريخِ
ويَبْني وطَنًا
يرقدُ تحتَ جليدِ الزَفَراتْ...

– ٤ –

هلْ كُنْتَ سِوى ليلِ القهْرِ

يمطُّ قوائمَهُ فوقَ الدنيا؟
هل كُنْتَ سِوى جوعِ السُّنْبُلِ
حينَ تصيرُ الأَرضُ بَوارًا
وتفيضُ الصحراءْ؟
هل كُنْتَ سِوى شَبَحٍ
زَعَموهُ وَطَنًا
لِعِظامٍ وهَباءْ؟

– ٥ –

أَمشي وأفتِّشُ عَنْ وَجْهٍ

فِي كُوَمِ الأَقْنِعَةِ الرمْلِيَّهْ.
أَمشي وَأُفتِّشُ عنْ شمسٍ
تحتَ صقيعِ الأرْضِ الثلْجِيَّهْ.
أمضي/
أَخْترقُ الأُفقَ الملْجومَ
وحشرجةَ البيتِ المتداعي
وجبالَ الأشباحِ العظْمِيَّهْ.
أَنبُتُ منْ قلبِ مدينَتِنا
زَوبعَةُ تثْقُبُ وجْهَ الشرْقِ وتلتهِبُ...
غَضَبٌ يَصْهَلُ في أعصابي

وَيُبَرْعِمُ في عَيْنَيَّ الغَضَبُ –
طوبى لِوَجْهِ مِنْ لَهَبْ.
طوبى لأَحْلامِ الجِياعِ
تُزَلْزِلُ التاريخَ مِنْ قَلْبِ السَّغَبْ/
قَصفٌ يحوكُ التربةَ الحمْراءَ شاهِقَةً
ويَخْتَرِقُ السديمَ إلى قراراتِ السماءِ.
هنا البروقُ تشقُّ أَطباقَ الجليدِ
ويمتطي التغييرُ أَحْصِنَةَ الجنونِ –
تمرُّ زوبعَةٌ على وَجْهي
ووجهي كلُّ نَبْضٍ في لَهيبِ الشِّعْرِ،

وجْهي كُلُّ أَعْصابِ المدى...
طوبى لوجْهٍ مِنْ لَهَبْ.
طوبى لأَرْضٍ تُخْرِجُ النيرانَ مِنْ دَمِها
وتُسْلِمُ جِسْمَها للشِّعْرِ يُخْصِبُها
وتنزفُ رَحْمُها قَمْحًا وأَثْماراً/
هنا الْتَمَّتْ مَلامِحُنا على وَطَنٍ
وَأَرَّخَتِ البِدايَةَ:
كلُّ وَجْهٍ يصنَعُ التاريخَ وَجْهي.
كُلُّ زَوْبَعَةٍ تُلخِّصُ قصَّةَ التاريخِ وجْهي.
كلُّ طفْلٍ في المدى وَجْهي...

ووجهي غارقٌ في أُقْحوانِ الشِّعْرِ
يَحْتَرِفُ الصَّهيلَ
ويزْرَعُ الآفاقَ بَرْقا.
غَضَبٌ يَهُزُّ الكوْنَ،
يَشْمَخُ في المدى،
ويشقُّ وَجْهَ الَأرْضِ شَقّا...
طوبى لإحْلامِ الجِياعِ
تُزَلْزِلُ التاريخَ من قَلْبِ السَّغَبْ
طوبى لشعْبٍ
مِنْ لَهَبْ.

(أيلول/كانون الأول – ١٩٩٤)

مشاهد

١ – مشهد

يفتحُ الليلُ في الوجعِ المشرئبِّ
فضاءَ الرمادْ.
يدخلُ الليلُ في الغيْمِ والسهْلِ
حتّى هبوبِ السهادْ.
يَقرعُ الصمْتُ أَزْلامَهُ...
غيرَ أَنَّ المدى مائِعٌ
والصدى يتَقافَزُ فَوْقَ الصخورِ/

شَرِبْنا الصدى والسكونَ؛
وأَتْلَفَنا العارُ حَتّى العِظامِ،
وَصِرْنا رُخامًا على شَفَقٍ منْ حَجَرْ
يرانا
ويبكي علينا القمَرْ...

٢ – مشهد

صدأٌ يترسَّبُ تحتَ جليدِ عروقي
وفي العينِ أَقْبِيَةٌ

مِنْ عِظامِ السراديبِ...
كانَ شُروقي
سكونًا من الصَّخْرِ يَرْدُمُ وَجْهَ الزمانْ
ويَتْرُكُنا يَبَسًا
في ضلوعِ المكانْ.

٣ – مشهد

لجّةُ الشَّعْبِ تَرَكَعُ في زَعْزَعِ العارِ:
ها كُلُّ وَجْهٍ رَفيقي،

وأنا المتواتِرُ في الصمْتِ
أَشْدَخُ رأْسي بحائطِهِ
وَيَسُدُّ صداهُ طَريقي...

٤ – مشهد

لَعْنةُ الحكْمِ فوقَ عروشِ الجماجِمِ.
عَصْرٌ يُزَنِّرُهُ الغَضَبُ الملْتَحي
في الزوايا الذليلَهْ.
كلُّ وَجْهٍ عَويلْ.

كلُّ وَجْهٍ هَباءٌ طَويلْ.

كلُّ عَرْشٍ يَمُطُّ بروجُ الردى
في فضاءِ القبيلَهْ.

٥ – مشهد

وجعُ الشعبِ يرقدُ في نَعشِهِ
جثّةً
زَغردَ العارُ فيها، قَتيلَهْ.

٦ – مشهد

رحَلَتْ أَدمُعي.

نَبَتَتْ أَحْجُرًا
ويَباسًا ثَقيلًا.
وصمْتًا/ هَوَتْ قِصَّةُ الشعْبِ
في آخرِ الوقْتِ.
كانَ الزمانُ مَهيضًا،
وكانَ المدى
حجرًا باردًا كالردى.

٧ – مشهد

وقفَ الشعْبُ... ماعَ وسالَ

على لَعنةِ العرشِ/
بِيعَتْ بَقاياهُ والفِكْرَ في السوقِ.
بيعَ الزمانُ رُكامًا،
ولمْ يبقَ غيرُ الصدى ماحِلًا
فوقَ بَحرِ الحجرْ
يَصْنَعُ الدهْرَ والـمُنْتَهى... والبَشَرْ!

سمفونيّة بابل
(أو: نشيد الفداء)

– ١ –

فضاءٌ معَلَّقٌ على الوجهِ الرماديّ
وصمتٌ كالحديدِ يَنحتُ الأُفق،
وبرجٌ سامِقٌ
من الدمِ والمرارةِ والدموع...
بابل:

لظًى من جليدٍ

حينَ لا تجلدُ النارُ وجهًا،
ولا تلْفَحُ الريحُ حرارةَ البدَن.

بابل:
شعبٌ صامتٌ كالجليد،
وصمتٌ في ضميرِ المدى
يثقبُ التاريخ.

بابل:

لكنّ في العينِ وطنًا مرًّا

والرملُ يُغرِقُ المدى...

– ٢ –

أَمضي إلى العَرَقِ المجمَّعِ في عناقيدِ الغيومِ وأَشتري وجهًا وصوتًا. أَشتري وطنًا، وأَحترفُ الضَّياعَ.

تركتُ أقدامي على رملٍ يُضَعْضِعُهُ الصدى،

لكنَّ بابلَ داهمَتْني فارتَقَيْتُ إلى النجومِ وعُدْتُ تاريخًا يحطِّمُهُ جُموحُ البَغْيِ/ بابلُ في بداياتِ الصدى وبقيّةِ البُهْتانِ. بابلُ في دَمي

ودمي المرايا والتواريخُ الحطامُ...

ما زالتِ الأَشياءُ يَصدعُها الركامُ.

ما زالتِ الدنيا صراخًا مُخْمَليًّا يَخزنُ الصمْتَ السحيقَ/ رأيتُ وجهي في دَمي

ووجوهَ كلِّ الجائعينَ. هنا المرارةُ تَثقبُ الأَزْمانَ. تُحْتَضَرُ البقيّةُ في سهولٍ من عِظامٍ. كانَ وجهي في دمي

ووجوهُ كلِّ الجائعينَ تزنّرُ التاريخَ أَلغامًا. هنا رملٌ. هناكَ تَقَصُّفٌ في قِمّةِ الهَذَيانِ يَختصِرُ الزمانَ. ويستطيلُ الصمتُ. تنفجرُ العروشُ. ينامُ وجهي في دمي لكِنَّهُ يستقبلُ الأحلامَ مثقوبًا ويختصرُ الضَّياعَ: يظلُّ وجهي فارغًا مثلَ الرمادِ

ومُثْلِجًا حتّى العِظامِ.
ما زالتِ الدنيا لَهيبًا بارِدًا
ومدًى من الزفَراتِ يسطَعُ في القَتامِ.
ما زالتِ الأشياءُ منْ رَمْلٍ
وكُلُّ عروشِنا وجَعًا
يُفَجِّرُهُ الظلامُ على الظلامِ...

– ٣ –

يطأ الثرى عِزَّتَهُ وينام...
تلتمُّ بابلُ في الْتِئامِ الوجَع،

تنقفِلُ حتّى أدوارِ الصدى.

والخلائقُ
بقيّةٌ من الرمل
وضَمَّةٌ من الهَباء.

بابلُ، بابل...
كيفَ نفتَحُ الأُفق؟

في اليدين والعينين والشفتين

رملٌ...

وفي الصدى الملجومِ تحتَ لجّةِ السكينةِ

رملٌ...

وفي الصوتِ الذي يضرِبُ الحَلْقَ ولا يخرج

رملٌ... رملٌ...

– ٤ –

همَدَ المدى...

كانت بقايا النسمَةِ الصفراءِ تخْتصِرُ الفجيعةَ:

بابلٌ في الحَلْقِ والأصواتِ،

بابلُ في انكسارِ الفكرِ،
بابلُ في الحَناجرِ،
بابلٌ في كلِّ عَرْشٍ من عروشِ العارِ،
بابلُ في انهيارِ العصْرِ،
بابلُ في تصَدُّعِ بُرْجِها وتَفَجُّرِ التاريخِ والزمنِ،
وبابلُ في اخْتصارِ الموتِ
حينَ تصيرُ أفلاكًا من العَفَنِ
وبابلُ كلُّ ما اختصرَ الزمانُ من الجحيمِ ومن بكاءاتِ الأراملِ واليتامى/ كانَ وجهي في ضبابِ ألرملِ مُنطَمِرًا، وعيني لا ترى إلّا هواءً ماحِلًا يتقمَّصُ الوكنَ المشظّى... بابلٌ في كلِّ شِلْوٍ من بقاياهُ –

ويَرُدُّنا الرَّجْعُ اللَعوبُ إلى شظايا العمْرِ،
يُقْفِلُنا علَيهِ،
ويُقْفِلُ التاريخَ جَفناهُ
وتنفجرُ الأَماني في وعورِ الروحِ/ كلُّ مرارةٍ في الدهرِ وجهي
وأنا العصورُ تجَمَّعَتْ في قُبَّةِ الهذَيانِ وانفجرَتْ/ يُها العارُ الذي الْتَمَّتْ على عيني حَناياهُ
ولَمْلَمَتِ السماءُ على العيونِ
ولَمْلَمَتْ نارَ الجحيمِ،
يُها الذي انْتَهَكَ البسالةَ في مقابرِ بابلٍ، قُدَّ المدى شَطْرَيْنِ مِنْ عارٍ وعارٍ، وَلْتَكُنْ عَيْنٌ بِعَيْنٍ...

بابلٌ تمشي إلى أنقاضِها
ويلُفُّنا الرَّجْعُ المخَلَّعُ في ثَناياهُ.
يطأُ الثرى دَمَنا،
ويقهرُنا صَقيعُ القبْرِ،
تُغوينا مَراياهُ.
نمُرُّ على المدى خِرَقًا
ويَلْفُظُنا الصدى،
وتُزَلْزِلُ الدنيا سُهولُ العارِ
حينَ يَحُزُّها وَجَعٌ
ويَصْلُبُها الرّدى:

هَمَدَ المدى...

– ٥ –

أَمشي إلَيَّ،
ولا شيءَ فِيَّ
سوى الرماد...

كيفَ أخرجُ؟
والرِّتاجُ فَراغٌ

ينفتِحُ على فراغ...

أمشي
والخطوُ وحْلٌ
يغرقُ في تيهِ الرمال...

أمشي،
والوطنُ مزرعةٌ

لا يقيمُ فيها إلّا الرمل...

أمشي.
ليسَ في الطريقِ سوى العِظام.

أمشي...
بيني وبين الرِّتاج
إرادةُ الزَّنْدِ والقدرُ المكسور،
وعارٌ جَفَّ على العيون...

– ٦ –

ألصبرُ يعلُكُ لَحْمَهُ

ويُقَدِّدُ الأجسادَ في نَفَقِ البكاءْ،

والدمعُ فَحْمٌ يدمَغُ الدمَ والفؤادَ،

وحينَ ينتحرُ المساءْ

يهوي إلى ليلٍ أمَرَّ منَ الدُّجُنَّةِ. كانَ وجهي في دَمي، ودمي المعابرَ والكنائسَ والكنائسَ والمآذِنَ واحتراقاتِ الليالي في المدى الملجومِ. كانَ دمي وصايا الأَرضِ حينَ تمرُّ في نَبْضِ الجذورِ وتَلْقَحُ الخِصْبَ الدفينَ. دمي الشقائقُ وَهْيَ تَفتَضُّ الزمانَ وتَقلعُ العَكَرَ المجذَّرَ في البروقِ. دمي الدماءُ تجمَّعَتْ في الأرضِ والْتَهَبَتْ.

دمي دَمْعُ الثكالى والتِهابُ القَهْرِ والعُمْرُ المشظّى
فوقَ أطماعِ العروشِ. دمي اشتِعالُ الشعبِ حينَ يصيرُ
زوبعَةً ويجْتَثُّ امْتِدادَ البرْجِ في أعماقِ لَعْنَتِهِ. دمي التاريخُ
يُزهِرُ في الخَلايا،

ودمي انْدِلاعُ الغَسْلِ يرْفَعُنا إلى عُمْقِ السماءِ. يُها
الجنونُ، كُنِ الزمانَ المستحيلَ يُزَوْبِعُ اللَعَناتِ في صَمْتِ
المسايا

وكُنِ التكَسُّرَ والتشظّيَ في ضَميرِ الكونِ يَخترعُ
النقيضَ لِتولَدَ الدنْيا. دمي الدُنيا. دمي الْتِهابُ الغِبْطَةِ
البيضاءِ في وجهِ الفضاءْ

ودمي الضياءُ

دمي الضياءُ

دمي الضياءْ...

(٢/ ٤/ ١٩٩٥)

تجليات الليل والنهار في صحراء سَدوم

"فقال الربّ: إنَّ صراخَ سدومَ عمورةَ قد كثُرَ وخطيئتَهم قد عظمتْ جدًّا...

فلمّا كان عند طلوع الفجر أَلَحَّ الملاكان على لوط قائلين: قُمْ فخُذِ امرأتَكَ وابنتَيكَ لئلّا تهلكَ بإثم المدينة. فتوانى لوط، فأمسكَ الرجلان بيدهِ وبيد امرأتِهِ وابنتيه لشَفَقَةِ الربِّ عليهِ، وأخرَجاه وصيّراه خارجَ المدينة... وأمطر الربُّ على سدومَ وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الربِّ من السماء؛ وقلَبَ تلكَ المدُنَ وكلَّ البقعةِ وجميعَ سكّانِ المدنِ ونَبْتَ الأرض. فالتَفتَت امرأتَهُ إلى ورائها فصارت نصبَ ملح."

(العهد العتيق)

"ولوطًا إذ قال لقومهِ: أتأتونَ الفحشةَ وأنتم تُبصرون؟ فما كان جوابُ قومه إلّا أن قالوا: أخرجوا آلَ لوط من قريتكم، فإنّهم أناس يتطهّرون. فأنجيناه وأهلَه إلّا امرأتَهُ قَدَّرْناها من الغابرين، وأَمْطَرْنا عليهم مطرًا فساءَ مطرُ المنذَرين."

(قرآن كريم)

– ١ –

يَسْتفيقُ الليلُ في عيني
ويَرْميني المدى
في دُوارٍ ماحِلٍ عَبْرَ الصدى...

كُنتُ أَهوي بارِدًا
حتّى جليدِ القبرِ
في ذُلٍّ
كأنَّ الأرضَ من حَولي
رمادٌ مائعٌ،
وكأنَّ الصبْرَ نَعْشٌ داكِنٌ...
لَكِنَّ صَوتًا جاءَ مِنْ عَتْمِ المتاهْ
كَيَدٍ تَخْتَرِقُ الهَوْلَ
وتمضي بِيَميني نَحْوَها.
كُنْتُ احْتِراقًا

ذُرَّ في ليلِ الجباهْ
ورمى الآفاقَ في الآفاقِ/ زَحْفٌ
باردُ حتّى العِظامِ
واخْتِراقُ القلبِ في صمتٍ
على أرضٍ
تَعَرّى لَوْنُها... حتّى الظلامِ! —
أيُّ ليلٍ في دَمي؟
أيُّ المنايا تَلْبَسُ التِّيجانَ
في هذا المدى المهْتَزِّ؟
– "يا لوطُ انْسَحِبْ!"

غَيْرَ أَنّي
صِرْتُ في ليلي بِلا وَجْهٍ
أُضيءُ الصبْرَ في حُزْنِ الصّلاهْ.
كُنْتُ شيئًا غامضًا
يمضي ولا يلقى سِواهْ.
كُنْتُ طَيفًا يرتمي في جوعِهِ الممتَدِّ
– "يا لوطُ انسَحِبْ!"
كُنْتُ أمشي باحِثًا عنْ مؤمِنٍ
لَكِنَّ دربي كانَ يُخْفيها السرابْ...
ويذوبُ التيهُ في الخطوِ رذاذًا،
ويُهيلُ الصمْتُ في حَلْقي الترابْ.

– ٢ –

كانتِ الأرضُ تردُّ الليلَ فوقَ الليلِ،
والتيجانُ تُغوي وتَجورْ،
وظلامُ العرشِ كابوسًا مَقيتًا
يَزرَعُ الأيّامَ عارًا وفُجورْ.
كانَ وجهُ اللهِ يَدْمى
في ظلامٍ بربريٍّ
مسَحَ التاريخَ زورْ...
قُمْتُ...
لكِنَّ المنايا

قَدَّتِ الدنيا إلى شَطرَينِ مِنْ حَوْلي:

سَبايا

وسبايا،

ورمانا الشرقُ تِفْلًا/ أيُّ خَطْوٍ

داسَ وجْهَ اللّهِ؟

– "يا لوطُ انسَحِبْ!"

ويمرُّ وجهُ العرشِ فوقَ دَمي

يمرُّ الرملُ،

تنفتِحُ البقايا

عنْ كِذْبَةٍ قَدَّتْ جَلاجِلَنا

وَقَوَّضَتِ السماءْ.
مَنْ يَرتَمي في التيهِ؟
مَن يتسلّق الدنيا إلى البهْتانِ؟
مَنْ مَسَحَ الضحايا
بِدَمِ الأفاعي،
واستجارَ من الضّياءْ
بِدُجُنَّةٍ أَعْتى من القبرِ الرهيبِ؟
وَمنْ، تُرى، رَفَعَتْ صَفاقَتُهُ عروشَ العارِ
فوقَ زمانِنا الملْجومِ
وانتزَعَ الجباهَ من الشموخِ،

وكسَّرَ السيفَ الذي امْتَصَّ الرعودَ من الأعالي؟
أيُّ العروشِ تقومُ في دَمِنا
وتَعْصِمُها الليالي؟
أيُّ النعالِ تمرُّ فوقَ جباهِنا
والشّعبُ مِمْسَحَةٌ
تُغَطّيها الرمالُ على الرمالِ؟

– ٣ –

أَمشي

وكلُّ نوافذِ الدنيا عيونٌ
ضاعَ منها اللهُ/ لا خَطوٌ
على زَهوِ الرمالِ
سوى الضَّياعْ...
أَمشي...
بقايا الخطو فحمٌ/ كلُّ وجْهٍ
غاصَ في زهْوِ القناعْ.
أَمشي...
كأنَّ معابدَ الموتى، هنا وهناكَ،
جوعٌ في ضميرِ الأرضِ.

– "يا لوطُ انسَحِبْ!"
ورأيْتُ ما حَولي يضيقُ عليَّ،
والدنْيا تُخاطُ إِلى الدُّجُنَّةِ،
والسماءُ إلى الظلامِ.
رأَيْتُ أَقْزامًا تُخاطُ إلى العروشِ
وتَجْعَلُ الرحْمَنَ سِلْعَتَها –
تَبيعُ اللهَ في سوقِ النِّخاسَةِ للبغايا!
مِزَقٌ هنا وهناكَ تستلُّ الجحيمَ
لتَسْندَ التاجَ المدمّى في الحُطامِ.
ورأيتُ في وطني الشظايا

حَمَلَتْ بقايا الأَنبياءِ إلى الظلامِ...
لا شيءَ في الخُطُواتِ غيرَ التيهِ.
- "يا لوطُ انْسَحِبْ!"
وإذا السبايا
شَعْبٌ تَحَصَّنَ بالمهانَةِ
في مَماسِحَ سُمِّيَتْ وطَنًا.
مَنِ انْتَعَلَ الكلامَ فصارَ أَحْذِيَةً،
وشدَّ العارَ في زَهْوِ الكلامِ؟
وإذا الضّحايا
ضَيَّعَتْ دَمَها على الكُفّارِ.

– "يا لوطُ انْسَحِبْ!"
هنا الهواءُ تَثاقَلَتْ أَقْدامُهُ في القلبِ.
– "يا لوطُ انْسَحِبْ!"
هذا الظلامُ القاهرُ المنْسوجُ من لحمٍ ودَمْ
قد صارَ سورًا سامِقًا
طَمَسَتْ مرارتُهُ النَّدَمْ
وتناسَلَتْ أَشْلاؤُهُ في كلِّ خطوٍ
غاصَ تحتَ الرملِ.
– "يا لوطُ انْسَحِبْ!"
لا شيءَ من حولي سوى عارٍ

ترامَتْ في دُجُنَّتِهِ البيوتُ.
لا شيءَ من حَولي سوى مِلْحٍ
وشعبٍ لا يعيشُ ولا يموتُ...

– ٤ –

قالتْ لي الصحراءُ: "في رَملي
خُطى نوحٍ وإبراهيمَ
والآتينَ مِنْ كَلِمِ السماءِ."
وقالتِ الصحراءُ: "في رَملي

ٱرْتمى لَهَبُ "الكتابِ"
وقَدَّ صَمْتَ الكوْنِ
واختصرَ المسافةَ والزمانَ."
وقالتِ الصحراءُ: "يا لوطُ اقترِبْ
مِن مَنْبعِ الخصبِ الدفيقِ،
وَرُدَّ أَصْلَ النارِ نارًا
والعروشَ مدائحًا للمجْدِ.
يا لوطُ انسَحِبْ!"
ومَشَيْتُ...
وجهي من بقايا الضائعينَ

وكُلِّ منبوذٍ ومُحْتَضَرِ.
أطوي الصدى فوقَ الصدى:
"ٱنْسَحِبِ... ٱنسَحِبْ!"
بُرْجُ الردى يمتصُّ أقدامَ المشاةِ ويلتَهِبْ،
ومنابعُ الكبريتِ تشهَقُ في جحيمِ الأرضِ:
"يا لوطُ ٱنْسَحِبْ!"
وصدى الرعودِ يفجِّرُ الغَضَبا.
مشيتُ...
وكانتِ الدنيا تُزَلْزِلُها البروقُ،
وتفتحُ الآفاقُ فاها للجنونِ

وتبصقُ اللهَبا.

لمْ أنْسَحِبْ.

وكأنّما الرُّؤيا تحذِّرُني:

"آنْسَحِبْ..."

لمْ أَنسَحِبْ.

قَرَّرْتُ أَنْ أَجْتَثَّ طَبْعَ الكفْرِ منْ شَعبي،

وكَسَّرْتُ الغيومَ،

عَصَرْتُها في القلبِ طِيبًا مُلْتَهِبْ.

لمْ أَنْسَحِبْ.

ما أَصْعبَ الخَطَواتِ حينَ تصيرُ

ضائعةً كوجْهي/ كلُّ خطْوٍ
داسَ تاريخًا وزَعْزَعَ نَفسَهُ،
ورمى اللهيبَ على اللهيبِ،
وشدَّ أحْلامي على أحْلامِهِمْ.
ما أَصْعَبَ الخَطَواتِ!
تسيرُ إِلى بُرْجِ الشمسِ لِتَخْلَعَها
وتُضيءُ الدنيا –
وجهي كلُّ دِماءِ الدنيا،
كلُّ صَهيلِ "الفَتْحِ" متى اخْتُصِرَ "الفَتْحُ"
بريحِ كِتابٍ

تَجْتَثُّ الدنيا من غُرْبَتِها في الرملِ
وتَجْتَثُّ العرشَ المتصدِّعَ
والتاجَ المنسوجَ بكلِّ دماءِ القهْرِ
وأَرْغِفةِ الشعبِ،
وتجتاحُ الليلَ
وتَنسجُ منْ أَبْخِرَةِ الشمسِ بُروجًا/
وجهي الصحراءُ متى انْفَجَرَتْ
زَرْعًا ومياهًا
وجيادًا تقتلعُ العارَ
وتزرعهُ راياتِ "الفتْحِ" بكلِّ الدنيا –

وجهي الدنيا.
وجهي البرْقُ
متى امتصَّ البرقُ بِشاراتِ التكوينِ
وكَوَّرَ من طينِ الأرْضِ حَداثةَ أَجيالٍ
يتقمَّصَها اللهَبُ.
وَجهي الغَضَبُ.
حينَ يُزَوْبِعُ تيجانَ العارِ
على العرشِ المرْقوعِ بِلَحْمِ البشَرِ.
وجهي كلُّ هُتافِ الشعبِ الطالِعِ من نارٍ
تكسرُ زَنْدَ الحجرِ –

لَمْ أَنسَحِبْ.

لَمْ أَنسَحِبْ.

وجعلْتُ منْ رؤيايَ مُلْتَهَبي

وَمن وَحْيي لَهيبي،

وَأَمَرْتُ تَنفجرُ السماءُ

لِتستفيقَ النارُ في كلِّ الدروبِ،

وشَقَقْتُ باللهَبِ الغَضوبِ

مَنابِعَ الموتى وتِيجانَ الدماءْ/

أَلشعبُ يعبرُ في مَعاريجِ السماءْ.

أَلشعبُ يعبرُ فوقَ أَضلاعي،

وأضلاعي ضياءْ...

– ٥ –

طوبى لِمَنْ حملوا على أكتافِهِمْ عِبْءَ الصليبْ.
طوبى لِمَنْ جَبلوا سيوفَ "الفَتْحِ"
من سُوَرِ "الكِتابْ"،
ومضَوا إلى مُدُنِ السحابْ
يبنونَ عرْشًا للزمانِ
يُزَوْبِعُ الموتَ الرهيبْ.

طوبى لشعبٍ منْ غَضَبْ
أَسَرَ الرياحَ
وجَيَّشَ الأَعصارَ جُنْدًا/ كلُّ صوتٍ
في المدى صوتي
وكلُّ الخطْوِ خطوي: لا نَصَبْ!
طوبى للآتينَ من النارِ إلى كلِّ الدنيا –
وجهي الدنيا.
وجهي الشعبُ الطالعُ من آبارِ التكوينِ
إلى شمسِ الأرضِ.
ٱنْسَحَبَ الليلُ.

ٱنْسَحَبَ التاريخُ المقهورُ.
ٱنْسَحَبَ العارُ الرابضُ فوقَ عروشِ التيهِ.
ٱنسحَبَتْ تيجانُ العرشِ المرقوعِ بلَحْمِ البشرِ.
وجهي الغضَبُ الخارجُ
مِن أَبْراجِ القدرِ.
طوبى للوطنِ الطالعِ من سردابِ الصبرِ
ومِنْ أَطْباعِ الحجرِ —
وجهي قدري.
وجهي كفّارةُ كلِّ ذنوبِ الدنيا.
طوبى للشعبِ الطالعِ من آبارِ التكوينِ

ومن زَوبعةِ الغضَبِ.

طوبى لدمي

حينَ يردُّ الدنيا أرضًا بِكرًا

يعصمها سورٌ من لَهَبِ...

(٢٥ – ٢٨/ ٨/ ١٩٩٥)

غضب موسى

(كُتِبَت بعد عمليّة "عناقيد الغضب")

"ورأى الشعبُ أنَّ موسى قد أبطأ في النزول من الجبل، فاجتمع الشعب على هرونَ وقالوا له: قمْ فاصنعْ لنا آلهةً تسير أمامنا... فقال لهم هرون: انزعوا شنوفَ الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وَأْتوني بها... فأخذها من أَيديهم، وصوّرها في قالب، وصنعها عجْلًا مسبوكًا. فقالوا: هذه آلهتُكِ يا إسرائيلُ التي أخرجتكِ من أرضِ مصر... وأَصْعَدوا محرقاتٍ، وقَرّبوا ذبائحَ سلامة، وجلس الشعب يأكلون ويشربون، ثمّ قاموا يلعبون.

فقال الربّ لموسى: هلُمَّ انزِلْ، فقد فَسدَ شعبُكَ الذي أَخرَجْتَهُ من مصرَ... وقال الربّ لموسى: إنّي قد رأيتُ هؤلاء الشعبَ فإذا هم قساة الرقاب... ثمّ أنثنى موسى ونزل من الجبل... فلمّا دنا من المحلّة رأى العِجْلَ والرقصَ، فاتّقدَ غضبُ موسى، فرمى باللوحين من يده، وكسرهما في أسفل الجبل..."

(سفر الخروج)

"وقال الربّ لموسى: هَلُمَّ فاخرجْ من ههنا أنتَ والشعبُ الذي أخرجتهم من مصر... إلى أرضٍ تدرّ لبنًا وعسلًا. وأمّا أنا فلا أصعد فيما بينكم، لأنّكم شعبٌ قساة الرقاب، لئلا أَفنيَكم في الطريق..."

(سفر الخروج)

- ١ -

بينَ وجهي
والمدى المزروعِ أشلاءً
وفولاذًا ونارْ
لُجّةٌ من جُثَثٍ
تحفرُ أَلواحَ الوصايا، ودمارْ...
وعيونٌ ترقبُ الغَيْبَ،
كأنّي في مَداها
حجرٌ يخْترِقُ التاريخَ نَحْوَ الغَيِّ.
كانتْ قامتي تُشرِفُ من فوقِ دِماها

لترى أُكْذوبةَ التاريخِ:
شَعْبًا قُدْتُهُ في البحرِ نحوَ اللهِ،
فارْتَدَّ إِلى العارِ،
وماتَ اللهُ في صَخْرِ الوصايا؛
وترامَوا أَضْبُعًا
تَنْهَشُ أَجسادَ الصِّغارْ.
بينَ وجهي وجنوبِ الأَرْضِ
فولاذٌ ونارْ...
بينَ وجهي والوصايا
بشرٌ أَوصَلْتُها في البحرِ نَحْوَ اللهِ

فارْتَدَّتْ عليهِ
أَضْبُعًا تنهَشُ أَجسادَ الصغارْ...

– ٢ –

قدَمي يُغْرِقُها الرملُ
وعبرَ الدربِ لا مَنٌّ ولا سَلْوى/
أمامي
وطنٌ يحفرُهُ الجوعُ وأصواتُ الضحايا.
كلُّ نَجْمٍ قَدَّ وَجْهَ الصبْحِ

وانقَضَّ على موجِ المنايا
مَعْدِنًا يَضرِبُ وَجْهَ اللهِ،
يرتَدُّ على لوحِ الوصايا.
قدَمي يُغرقُها الرمْلُ/ هنا
ليلٌ جنوبيٌّ يلمُّ العارَ في قلبي.
أَفي وجْهي رمى التاريخُ نارَهْ
وتوارى
فَورةً تخمدُ في عَتْمِ مَغارَهْ؟
كيفَ لا يخترقُ العارُ جُفوني
وجفوني طَهَّرَتْ أَرضَ المعادْ

لتصيرَ الأَرْضُ بورًا
بعدَ أَنْ دَنَّسَها كُفْرُ العِبادْ!
وأُشيدَتْ في ظلامِ البرْجِ أَبراجٌ لِبَعْلٍ وضَحايا
تَحْتَ أَستارِ ظلامٍ باردٍ
حتّى الرمادْ.
أَينَ شَعْبي؟
مَنْ، تُرى، يَزْعَمُ
في هذا المدى المرصوفِ بالعَظْمِ
وبالكُفْرِ
وَأَبْراجِ المنايا

أَنَّ ميثاقًا يُعيدُ إليهِ مَجْدَ النورِ؟
لا شيءٌ سوى عُبّادِ بَعْلٍ
يَزرعونَ العارَ في كلِّ الزوايا
وتقومُ شُرْعَتُهُمْ على جُثَثٍ بَنَتْ،
إِذْ كَدَّسَتْها أَذرُعُ الطُّغْيانِ بُرْجًا للردى
سَمَّوْهُ "إِسْرائيلَ".
آهٍ، كَيفَ يَدْمى في ظَلامِ البرْجِ
وَجْهُ اللهِ!
كيفَ يُقادُ نَحْوَ التيهِ شَعْبي؟
كَيفَ تُخْتَرَعُ الحَكايا

ليقَنِّعَ الطاغوتُ وَحْشًا ضاريًا
ويظلَّ يرفَعُهُ إِلهًا
فوقَ أَشلاءِ الضحايا!
ماذا فعَلْتُ! وَكَيفَ تُغْتَفَرُ الذنوبُ!
مَلَّكْتُ شَعْبًا يَذْبَحُ اللهَ
فلا تَكفيهِ أَلْواحُ الوصايا
أَوْ يَتوبُ...!

– ٣ –

أَمشي إلى التاريخِ

والتاريخُ يَرْجُمُني...
تمشي إِلَيَّ كَواكِبٌ
وتُواكِبُ الآياتُ "شَعْبًا قاسِيًا"/
يا رَبُّ، صَوْتُ الوَحْيِ يَصدِمُني
ويهزُّ أعماقي/ كأَنَّ الأرضَ زَلْزَلَها المغيبُ.
كأنّما الصحراءُ أَغْرَقَها الظلامُ
وَأَضَلَّني ما قُدْتُ مِنْ بَشَرٍ
إلى أَرضِ المعادِ؛
إذا بِوَحْيي في دُجُنَّتِها رُكامُ،
وإِذا بكُلِّ البَدْوِ في الصحراءِ تَخرجُ عَلْقَمًا:

شَعْبًا عقيمًا مَجَّ حاضِرَهُ القَتامُ
ومضى إلى التاريخِ مِمْسَحَةً
يُزاحُ بها غُبارُ الغرْبِ،
أو عَرْشًا
تُرَصِّعُهُ الجَماجِمُ والعِظامُ...

أَمشي إلى التاريخِ...
في خَطَواتِيَ التَّعَبُ.
أَمشي... وكلُّ جَماجِمِ الموتى

تُشيرُ إِلَيَّ في غَضَبٍ وتنتحِبُ.
وَجهي مراراتُ العصورِ
تَجَمَّعَتْ في دَمْعَةٍ من عَينِ طِفلٍ
ماتَ في "قانا"/ دمي دَمُهُمْ.
ووجهي...
أيُّ عارٍ كانَ في وَجْهي!
رَمَيْتُ... رَمَيْتُ في الدربِ القديمِ مَلامِحي،
ورَميْتُ وَجْهي –
ليسَ شَعبي مِنْ دَمي.
لستُ الذي قادَ العبورَ إلى بروجِ الموتِ.

لَستُ نبيَّهُمْ.
لَكِنَّني أَمْشي إلى التاريخِ
والتاريخُ يُفْجِعُني بهِ عارٌ زُؤامُ.
لستُ الذي قادَ العبورَ إلى بروجِ الموتِ
يَحْميهِ الظلامُ،
ويلُمُّهُ عَرْشٌ على تاجٍ
ترصِّعُهُ الجماجِمُ والعِظامُ...

– ٤ –

أَمشي إِلى أرضٍ

يقالُ لها: "جنوبُ."

أَمشي...

وخَطوي يَدْفُقُ الأَنهارَ في قلبي

لِيَخْضَرَّ الشّحوبُ.

وتَدَفَّقُ النَّجماتُ في كَفَّيَّ،

تَنفتِحُ الزوايا والقلوبُ

لِقَوافِلِ الغُفْرانِ/ آتٍ يا جنوبُ...

أَلريحُ تَحمِلُني ويَحْمِلُني الشجَرْ

وَأَمُرُّ في نَبْضِ الحجرْ

وَأَرى الثّكالى واليتامى يمْتَشِقْنَ الرعْدَ،

والفجرَ المعلَّقَ في مراراتي يَذوبُ.
أَلريحُ تحملُني وأَعبرُ في الصُّوَرْ:
طِفلٌ يصدُّ بكفِّهِ زَحْفَ الوحوشِ.
زنابِقٌ تمشي وتفتَحُ صَدرَها للنارِ،
تَعقُدُها شَرَرْ.
بَيتٌ يَضمُّ الشمسَ. يَحضنُها.
وتَنجذرُ البشرْ
في عُمْقِ أَعماقِ الترابِ/
"هناكَ يا موسى" — تشيرُ يدٌ إِلَيَّ
مِنَ الضِّياءِ — "هناكَ يا موسى".

وأَصعدُ قِمّةَ الدنيا على ظَهْرِ الجنوبِ:
أماميَ اللهُ الذي انبَثَقَتْ وصاياهُ
منَ الأَلَمِ العميقِ؛
أماميَ النارُ التي حَفَرَتْ
على صَخرِ الجنوبِ ضَميرَها،
وضميرُها شَعبٌ يَردُّ الموتَ بالكفّينِ
عاريَتَينِ حتّى العَظْمِ.
"يا موسى، هناكَ... هناكَ يا موسى."
وأَصعدُ قِمَّةَ الدنيا على ظَهْرِ الجنوبِ؛
أرى أمامي اللهَ يسكنُ دَمْعَةً

من عَينِ طفلٍ ماتَ في "قانا".
وتَنحفرُ الوصايا
في اللحْمِ والأَشلاءِ من جُثَثِ الضحايا...!
وأرى لَهيبَ اللهِ
يحفرُ في السماءِ وفي القلوبِ
ميثاقَ إِخْوَتِيَ الجديدَ.
"هناكَ يا موسى،
على ظَهرِ الجنوبِ بِقِمّةِ الدنيا
تَعَلَّمْتَ النبوَّةَ مِنْ جَديدْ."
يَفْتَحُ التاريخُ كَفَّيْهِ ويَحْمِلُني

إِلى أعماقِهِ الحبْلى.
أَضُمُّ إلى زُنودِ الناسِ زَنْدي.
تَنهضُ الآفاقُ فينا والنبوَّةُ.
أَفْتَحُ التاريخَ مِنْ ميثاقِ إخوتيَ الجديدِ
وَأَضْرِبُ الدنيا، فتنزاحُ المنايا
عنْ قِصَّةِ الشعبِ الذي في لَحْمِهِ
ٱنْحَفَرَتْ جذورُ الأَرضِ.
أَنْزِلُ حامِلًا لوْحَ الوصايا:
– طِفْلٌ يصدُّ بكَفِّهِ زَحْفَ الوحوشِ.
– زنابِقٌ تمشي وتفتحُ صدرَها للنارِ،
تعقُدُها شَرَرْ.

– شَعْبٌ يردُّ الموتَ بالكَفَّيْنِ
عاريَتينِ... حتّى العَظْمِ...
– تَنجذِرُ البشرْ
في عُمْقِ أَعماقِ الترابِ...
أرى أمامي اللهَ يسكنُ دمعةً
من عينِ طفلٍ ماتَ في "قانا"،
وتنحفرُ الوصايا
في اللحْمِ والأَشلاءِ من جُثَثِ الضحايا.
نمشي، وفي خَطَواتِنا قَمْحٌ،
وتاجٌ من عَبيرِ الأَرضِ.

نمشي، والمدى حقلٌ من الأنوارِ
تُخصِبُهُ القلوبْ،
وتَخُطُّ في لَوْحِ الوصايا
أَنَّ ثَغْرَ اللهِ قَبَّلَ تُرْبةً حمراءَ
سَمّاها الجَنوبْ...

(٢٢/ ٤/ ١٩٩٦)

جهنّم

"رأيتُ في أَرْوِقةِ الجحيم بشرًا لا
يعيشون ولا يموتون."
(دانتي – الكوميديا الإلهيّة)

– ١ –

في عيوني
طُرُقٌ تمتدُّ مِنْ لَحْمٍ
ومِنْ عَظْمٍ وَأَشلاءِ بشَرْ،

وتَفورُ النارُ جُدرانًا من الجَمْرِ،
تَغوصُ النارُ في صَلْبِ الحجرْ،
وعيونٌ تتوارى
خلفَ سورٍ من جلودِ الناسِ
يَعلو في الجحيمْ،
ويُواري وجَعَ الأَشياءِ في رُعْبِ المدى
ليلٌ بَهيمْ
ووجوهٌ تُحْتَضَرْ...
لم يكنْ في غابةِ الرعبِ
سِوى هَوْلِ الهباءْ

وسوى عينينِ مِنْ صَخْرٍ تَرُدّانِ الضياءْ
عَنْ عُقولٍ يَبِسَتْ حتّى العصَبْ،
وعقولٍ من حَطَبْ
سُمِّيَتْ شَعْبًا على هذا المدى المنسوجِ
مِنْ هَوْلٍ وعَظْمٍ ومساءْ...

غارتْ على الآفاقِ أَحلامُ،
ومرَّ الذُّعْرُ مرْتَعِدًا –
كأنَّ الليلَ يَخترقُ الجلودَ إلى فضاءِ الروحِ،

أو

ينشقُّ وَهْجُ الشمسِ

عَنْ هَرْجِ الدُّجُنَّةِ والغبارْ.

غارَتْ على العَينينِ دَرْبٌ.

كانتِ الخَطَواتُ

يُغرقُها سكونٌ باردٌ حتى الجليدِ

سوى صراخِ الصمتِ يَصدَعُهُ شِعارْ:

عَرْشُ تُرَقِّعُهُ جلودُ اليُتْمِ

في بؤسِ الصِّغارْ.

ومَشَيتُ في هَوْلِ الجحيمِ/

يمرُّ من تَحتي سَرابٌ ماحِلٌ
ويَدانِ من قَشٍّ
وعَيْنٌ من حِجارْ
وحصًى تسدُّ الأُفْقَ فوقَ حصًد
وآلافُ الطَواطمِ والتعاويذِ الجريحةِ/ بينَ
عيني والدموعِ الجارياتِ
تَهَدُّمُ التاريخِ، أوْ
وجَعُ الشظايا وَهْيَ تَحْتَضِنُ الشظايا.
أَيُّها التاريخُ، يا وَجْهي،
ويا غُرَفًا من الدّمِ في انْحِدارِ الشرقِ،

يا كَذِبَ المرايا
حينَ لا يبقى سوى عرشٍ
تُرَقِّعُهُ جُلودُ اليُتْمِ في بُؤسِ الصغارْ!
وجَعٌ على وَجَعٍ،
وأَشلاءٌ تُشَظّيها على الطرفَينِ وَلْوَلَةُ القِطارْ...

– ٢ –

وجهي تِلاوات يجوِّدُها الأسى.
وجهي ترابٌ أَصْفَرٌ يمتدُّ في وطَنٍ

بلا وَجْهٍ، ولا شَكلٍ، ولا ظِلٍّ –
تِلاواتٌ هو الوطَنُ البعيدُ كثوبِ زنبقةٍ
وبَعضِ بقيّةٍ من لَفْظِ إنجيلٍ
تناثرَ في هبوبِ الليلِ.
وجهي...
ليسَ في وجهي سوى تاجٍ
ترصِّعُهُ عيونُ البؤسِ في تاريخِنا المقهورِ –
وجهي كلُّ أَشلاءِ الجياعِ
وكلُّ دَمْعٍ في عيونِ الثّكلِ،
وجهي

قُبلةٌ حَمراءُ مارَتْ في شَرايينِ الصدى.
وجهي الجنوبُ
وكلُّ ما زرَعَتْ زنودُ الزنبقِ الزاهي
على عُرْسِ الدماءْ...
ما زالتِ الأَشياءُ من ثَلجٍ
يُهَشِّمُ روحَها زَحْفُ الهباءْ.
ما زالتِ الدنيا قِناعًا معْتِمًا
والحقُّ طاغوتًا على عرشٍ
ترقِّعُهُ جُلودُ الناسِ
في جوعِ المساءْ...!

– ٣ –

عانَيتُ في غَبَشِ الضَّياعِ مجرَّةً
فُتِحَتْ على ليلٍ بَهيمٍ. والمدى
صَخرٌ على الصدرِ المكسَّرِ/ ليسَ وجهي
غيرُ ناقوسٍ
يلمُّ التيهَ فوقَ التيهِ.
والوطنُ المعذَّبُ صخرةٌ
تُلقى على أكتافِنا،
وجَهَنَّمُ عَصَرَتْ بِفَوْرَتِها القدَرْ.
وتحَوَّلَتْ صُوَرًا

تمرُّ على مَرارتِها الصُوَرْ.
وحشٌ يردُّ الجسْمَ أَشلاءً
وينتزِعُ العقولَ.
بقيّةٌ من هَوْلِ كابوسٍ تُفَتِّتُ ما ترامى
من رَجاءِ الصبرِ في برْدِ الحجرْ.
وَجَعٌ على وَجَعٍ،
وشَعْبٌ صَوَّرَتْهُ النارُ
منْ غَيْرِ البشَرْ –
عانَيتُ في غَبَشِ الضَّياعِ
تَفَجُّرَ القَهْرِ المقَنَّعِ بالضِّياءِ –

ولا ضِياءَ سوى الرمادْ
وسوى مُسوخٍ رُكِّبَتْ خَطَأً على أَجسادِها
تَمْتَصُّ يُتْمَ النارِ
والجوعَ المخبَّأَ في السُّهادْ،
وتسيرُ زاحفَةً كيَنْبوعٍ ذَليلٍ
نَحْوَ أَقْدامِ الطغاةِ لتَكسرَ الدنيا
على تاجٍ صَغيرٍ في جَهَنَّمْ!
عانَيْتُ في غَبَشِ الضَّياعِ
تَقَهْقُرَ الأَحْلامِ في ليلٍ تَرَنَّمْ،
ومضى على ظَهْرِ المسوخِ يُرَقِّعُ الدنيا

وَيَخْتَرِعُ المحالْ
والشعبُ ممْسحَةٌ
يُجرجُها قِناعُ الزيفِ
في إِثْرِ النِّعالْ...

– ٤ –

وَمْضُ...
وتاريخٌ يَميعُ على رمالِ النارِ.
وَمضٌ...

والصدى كَهْفٌ منَ الزَّفَراتِ يَسْحَقُ حِسَّنا
ويُفَتِّتُ الطَّفَراتِ،
يَذروها رَمادًا باردًا فوقَ المدى.
وَمضٌ...
ويَرْتَقِصُ الصدى.
وَمْضٌ...
كأنَّ الأرضَ ماعَتْ تحتَ أَقدامِ الورى،
وكأنَّما الحُقَبُ
لُخِّصْنَ في تاريخِ أَقزامٍ يَلُمُّ العارَ فوقَ العارِ/
كانَ الصمتُ أَبراجًا يَجُرُّ الأَرضَ مِنْ حَولي

ويَلْتَهِبُ.
وسَوطُ النارِ يَزحَفُ في ثَنايا الجِلْدِ:
كانَ الرُّعْبُ يَجتاحُ القلوبَ
وكانَتِ الدنيا تَدورُ على الرَّحى مَسحوقةً كالحَبِّ.
آهٍ،
كَم ذرَفْتُ الدَّمْعَ مَقهورًا على شُبّاكِ بيتي
وانتظرْتُ مجيءَ نورٍ كاليمامةِ أَبيَضًا –
رَبّاهُ، كَمْ جَرَّحْتُ حَنْجرَتي
لِتُزْهِرَ في خطايَ الشمسُ
أو لِيقومَ مِنْ بينِ الجثَثْ

وطني، وينشقَّ العبَثْ...
لكِنَّ أَنصابَ الرمادِ على عروشِ العارِ
أَغْمَدْنَ الدموعَ بمقلَتيَّ
وصارَ لَحْمي تربةً لليَأْسِ أُلْحِدُ فيهِ أحلامي
وتُلْحِدُني شعوبٌ ساكنَتْني جُثَّتي –
مَسْخٌ يُكَوِّرُ حِقْدَهُ بَشَرًا
وأَبراجًا تُعَلِّيها مسوخْ
ويصيرُ سلطانًا، وينفخُ جسمَهُ بالقَشِّ،
ينفخُ عَرْشَهُ بالتِّبْنِ،
يُخْفي ذُلَّهُ المفتوحَ في وَجْهٍ يَبوخْ...

مَسْخٌ يُرَوِّعُهُ الغَضَبْ
فيُشيدُ برْجًا من ظلامٍ
فَوقَ طَفْراتِ العَصَبْ،
والشعبُ ظِلٌّ منْ رمادٍ
باردٍ مثلَ الجليدِ،
ومِنْ حَطَبْ...!

– ٥ –

بشَرٌ على الليلِ العظيمْ.

بشرٌ تفورُ على ضبابِ التّفْلِ
في لُجَجِ الجديمْ...
بشرٌ تمطُّ وجوهَها فَأْرًا وجرذانًا،
وتسعى بينَ أَشباحِ العروشِ
لِتَلْعَقَ النَّعْلَ التي داسَتْ على جَبَهاتِها/
بَشَرٌ... بشرْ...
بشرٌ تُجَرْجِرُها المسوخُ
كَما يَقودُ الذَّبْحُ قُطعانَ البقَرْ.
بشَرٌ... بشرْ...
أَلشاعرُ المخْصِيُّ يَرْكَعُ في جُيوبِ وَلِيِّهِ:

كَفّاهُ مِبْخَرَتانِ
والشِّعْرُ المنَمَّقُ يَلْعَقُ الخَطَواتِ حَوْلَ العرشِ،
يَمْسَحُهُ بِرَغْوَةِ تِبْنِهِ،
وتفورُ فيهِ
رَغْوَةُ الزُّلفى – تُغَطّيهِ
وينفجرُ الصدى في لونِ عَينَيهِ...
بشَرْ...
بشَرٌ... بشرْ...
تطفو على لُجَجِ الجحيمِ
وشِعْرُها تِبْنٌ يُزَوْبِعُ ما تَعالى

مِنْ كَراماتِ الجِباهْ،
يَنْسَلُّ في جَيْبِ الوَلِيّ
لَعَلَّ فَلْسَ الذُّلِّ يَحْمِلُهُ إِلى قِمَمِ الرّفاهْ.
تِبْنٌ يفورُ، ورغوةٌ...
تِبْنٌ يفورُ، ورغوةٌ...
تِبْنٌ يفورُ على عروشٍ منْ حجرْ...
بَشَرٌ... بشَرْ...
تطفو على لُجَجِ الجحيمِ بِلا جِباهْ،
لا الموتُ يَنفَعُها،
ولا عُمْقُ الصّلاهْ...

تِبْنٌ يفورُ، ورغوَةٌ:
أَلعُمْرُ زَوْبَعَهُ الصدى،
والْمَعْلَفُ الملعونُ يَنفُخُ جِسْمَنا بالقَشِّ
والتِّبْنِ العريقْ —
تِبْنٌ يفورُ، ورغْوةٌ
تُعْمي مَصابيحَ المدى...
عانَيْتُ في غَبَشِ التَزّلُّفِ والضَّياعْ
آلامَ أَجيالٍ منَ المُرْدِ الطِّوالِ
مُسِخْنَ جُرْذانًا
على صَحراءِ ليلٍ يترَنَّمْ.

عانَيْتُ هَوْلَ القَهْرِ يَسْري
خَلْفَ أَسْتارِ القناعْ
ودُجُنَّةِ الهَوْلِ المزَوْبعِ في جَهَنَّمْ...!
لم يبقَ غَيرُ وليمةٍ للرُّعْبِ شَقَّتْ دَرْبَها
وقوافلِ الوجَعِ المضَعْضَعِ، والغبارْ.
لمْ يبقَ غيرُ مرارةِ الزمنِ المكسَّرِ
في لحومِ الناسِ،
والتِّبْنِ المفَوَّرِ في النُّضارْ،
لم يبقَ منتَصِبًا سوى عَرْشٍ
تُرَقِّعُهُ جلودُ اليُتْمِ في بُؤْسِ الصِّغارْ...
(أيار/ ١٩٩٧)

الفهرس



لا شيءَ غيرَ رعودِ مِطرقَةٍ
تقدُّ جَماجِمَ الموتى
وتُحرقُ نِيمةَ التاريخِ
في خِصْبِ الفصولْ.
حَقْلٌ... ويلتهِبُ العِنَبْ...
حَقلٌ... ويلْتَهِبُ اللهَبْ...
نارٌ على نارٍ،
وألْسِنَةٌ تُعيدُ بِناءَ قلبِ الأرضِ
بُرْجًا من غَضَبْ!